حول مفهوم اللغة وامتداداته الاجتماعية

بوزيد صحراوي

مكلف بالدروس وباحث

بمعهد علم الاجتماع

حول مفهوم اللغة وامتداداته الاجتماعية

بوزيد صحراوي
مكلف بالدروس وباحث
بمعهد علم الاجتماع

تحديد مفهوم اللغة: Language: Langue

من الناحية التاريخية، فإن أول من قام بتحديد مفهوم اللغة، حسب رأي PIERRE JACCARD، هو العالم السويسري FERDINAND DE SAUSSURE، في مذكرة حول حروف العلة صدرت له سنة 1878، حيث إعتبر اللغة (نظاما معقدا يمتلكه كل الناس)(1) وبطبيعة الحال فإن هذا التعريف لم يكن الوحيد المتداول آنذاك في الوسط الفكري والعلمي، بل كانت توجد إلى جانبه تعاريف أخرى كثيرة، يذكر منها P. JACCARD، التعريف الذي وضعه الفيلسوف R. RUYER والقاضي بأن اللغة هي: (حالة مذهلة من إستقلالية الثقافة: يجدها الأفراد عند ولادتهم)(2).

وتعريف JEAN LESCURE القائل «أن الإنسان يكتشف العالم بتسميته، كما يكتشف كل لحظة من حياته بفضل اللغة، وأن اللغة هي المبتكرة للحقيقة»(3).

ونظرا لكون اللغة ظاهرة إجتماعية ذات طبيعة متجددة بفضل المكتسبات المستمرة التي تمدها بها مختلف فروع المعرفة الإنسانية، من آداب، وفلسفة، وعلوم فنية وتقنية ... إلخ، فقد ظلت محاولات تحديد هذا المفهوم تتجدد هي الأخرى ولم تقتصر على مجرد إعتبار اللغة «كل أو مجموع منظم ينتقل من جيل إلى آخر».

وتأتي في مقدمة هذه المحاولات، ذلك التحديد الذي ورد في كتاب F. DE SAUSSURE، «محاضرات في الألسنية العامة»، والذي جدد بعد وفاته، وطبع في مدينة LAUSANNE سنة 1916، أين عرف اللغة بأنها «مجموع كلي من الرموز مترابط، إلى حد ما، في نظام يسمح لكل فرد بالتعبير عن فكره»(4) وزيادة في توضيح هذا التعريف يحدثنا F. DE SAUSSURE عن كيفية أداء اللغة لوظيفتها الإعلامية، والاتصالية قائلا «إن اللغة هي نظام من الرموز يعبر عن الأفكار. يشبه الكتابة، وأبجدية الصم - البكم، والطقوس والشعائر الرمزية، وأشكال اللباقة والمجاملة، والشارات والرموز والعلامات العسكرية... إلخ. إنه الأهم من كل هذه النظم. وهكذا نستطيع تصور العلم الذي يدرس حياة الرموز في إطار الحياة الاجتماعية، هذا العلم نسميه: السيميولوجيا Semiologie (بالاغريقية Semeion وتعني الرمز)، إنه يخبرنا عن مكونات الرموز. إننا نعتقد أن إعتبارنا للشعائر والطقوس والعادات ... إلخ بأنها رموزا، فإننا نشعر بالحاجة إلى شرحها بواسطة قوانين هذا العلم»(5).

وبطبيعة الحال، فإن اللغة شيء، ووظائفها المختلفة شيء آخر، والعلم أو العلوم التي تدرس هذه اللغة وهذه الوظائف شيء آخر تماما، ولهذا سنستمر

في عرضنا لبعض التعاريف الأخرى الواردة بشأن مفهوم اللغة حتى نتمكن في الأخير من بلورة رأي واضح ودقيق حول هذا المفهوم. أما فيما يخص الفرق بين مفهوم اللغة Language ومفهوم اللهجة Dialect، والفرق بين الوظائف المختلفة للغة، وكذا الفرق بين بعض العلوم والتخصصات التي تجعل من اللغة موضوعا ومجالا حيويا لها، مثل: علم اللسان La linguistique، وعلم العروض Sémiologie ليست من الإهتمامات الحالية.

وفي هذا الشأن، يقتبس الدكتور محمود السعران في كتابه اللغة والمجتمع، عدة آراء، لعلماء من تخصصات مختلفة، حول مفهوم اللغة، نكتفي بالإشارة إلى أهمها فقط وهي:

1 - «إن اللغة هي التعبير عن الأفكار بواسطة الأصوات الكلامية المؤتلفة في كلمات»(6).

2 - «اللغة هي وسيلة إنسانية خالصة، وغير غريزية إطلاقا لتوصيل الأفكار، والإنفعالات، والرغبات عن طريق نظام من الرموز تصدر بطريقة إرادية»(7).

أما الدكتور محمد عاطف غيث، فيحدد «اللغة» في كتابه «قاموس علم الإجتماع» بأنها «صورة السلوك الإنساني الشاملة التي تنطوي على الإتصال الرمزي من خلال نسق النماذج الصوتية المتفق عليها ثقافيا، والذي يحمل معاني. وتعتبر اللغة جزءا من التراث الثقافي ومعبرة عنه في نفس الوقت. هذا وتتحول الأصوات التلقائية في اللغة إلى رموز ثقافية قادرة على توصيل الأفكار، والرغبات، والمعاني والخبرات والتقاليد من جيل إلى آخر.

واللغة نتاج إجتماعي، تمثل التجارب المتراكمة والراهنة، والعواطف والمعاني التي يمكن نقلها داخل ثقافة معينة، بالإضافة إلى أهميتها في الإدراك الاجتماعي، والتفكير، ومعرفة الذات، ومعرفة الآخرين، وهي لذلك ضرورية للوجود الاجتماعي»(8).

وتعتبر اللغة في نظر الدكتور، محمد المنجي الصيادي، «جملة من الوحدات الصوتية التي تنشأ عنها صور دقيقة: أي الأفكار. واللغة عمل إجتماعي نفساني عضوي وظائفي متشعب: يشمل المتكلم والسامع المشارك في الكلام، ويتم بينهما تيار من الأفكار تستخدم فيها ألفاظ دالة»(9).

أما D. LAWTON ، فقد اعتبرها، في كتابه، الطبقة الاجتماعية، اللغة، والتعليم، بأنها «الخاصية الإنسانية الوحيدة التي تمكننا من التعلم، والتفكير المبدع، والتعبير الاجتماعي»(10) ويضيف قائلا «إن اللغة لا تساعدنا فقط على فهم لماذا الأشياء هي على ما هي عليه، ولكنها تمكننا أيضا أن ننظر إلى ماذا ينبغي أن تكون عليه الأشياء»(11).

ويختصر القاموس الموضوعي Petit Larousse، مفهوم اللغة، في مجرد إعتبارها «نظاما من الرموز الشفهية الخاصة بمجتمع محلي ما، Communauté أو بجماعة ما Groupe أو بالفرد Individu»(12) أو هي «ملكة خاصة بالإنسان للتعبير عن أفكاره وإيصالها بواسطة نظام من الرموز الصوتية Vocaux والمكتوبة Graphique»(13).

وختاما لهذه القائمة الطويلة من التعاريف الخاصة بمفهوم اللغة، لا بأس أن نشير إلى بعض تلك الصيغ الكثيرة التي أوردها محمد المنجي الصيادي،

ضمن تحليله الاجتماعي لظاهرة اللغة، والتمييز بينها وبين الكلام العادي، وذلك بهدف إبراز بعض الأبعاد الأخرى المهمة التي ربما تكون التعاريف السابقة قد أهملتها أو اعتبرتها مسائل ثانوية.

فمن ناحية البعد أو الوظيفة النفسية للغة، فإن هناك من اللغوين من ينظر إليها بأنها [«مادة طبعتها الحركة وتوازنت فيها الميول»، أو هي باختصار «أداة الذكاء البشري وجهازه» كما يعتقد آخرون.

وبهذا تكون اللغة في خدمة التعبير وإبلاغ ما يكنه الفرد إلى غيره. وبواسطتها لا يكسب الفرد فقط سلطة جدية على الأشياء وعلى الواقع الموضوعي بل إنه يملك سيطرة جديدة على ذاته](14).

أما عن البعد التاريخي، أي المصدر أو المرجع الأصلي الذي نشأت عنه اللغة، ومسارات تطورها، فهناك من يرى «بأنها من إبتداع روح عبقرية أو وحي إلهي، ثم أخذت في التشكل والإنقسام والتطور تبعا لهجرات الإنسان وحروبه ونشاطاته المختلفة... إلخ. وهناك من يعتقد، على العكس من ذلك، أن المنشأ الأصلي للغة، هو تلك الأصوات الصادرة عن الطبيعة المحيطة بالإنسان، والذي قام بدوره بتقليدها بأصوات محكية صادرة عنه، ثم تطور هذا الكم المتزايد من الأصوات المحكية إلى نظام متقن عليه للتعبير عن الفكر البشري(15).

أما فيما يخص البعد الفيزيولوجي Physiologie، فهناك من يرى «أن اللغة هي ناتجة عن نشاط جسماني وظائفي، يعبر عن التجربة البشرية في

وحدات صوتية لها مضمونا دلاليا ومجالا نطقيا. ويتجزأ هذا التعبير الصوتي إلى وحدات متميزة متوالية (فونيمان) محددة العدد في كل لغة، ويختلف نوعها وعلاقاتها المتبادلة أيضا من لغة لأخرى»(16) وهكذا يبرز دور وأهمية الكلام في كونه إختراعا مزدوج الدور والمفعول، فهو «أداة الإبلاغ والأداة المدونة التي تثبت المعرفة بواسطة التجريد والتعميم في المفاهيم، ممكنا بذلك اللغة من النمو اللانهائي»(17).

أما من حيث البعد الاجتماعي للغة، والذي يمكن اعتباره من أهم وأعقد أبعادها المختلفة، وذلك بالنظر إلى التفاعل الكثيف بين الفاعلين الاجتماعين والطبيعة المتميزة للأدوار والمواقف الاجتماعية التي يشتركون فيها، ومضامين هذه المواقف والأدوار وما ينتج عنها هي الأخرى من نشاطات إجتماعية من جهة، وتطور للغة ذاتها من ناحية أخرى، فإن اللغة تصبح من الرهانات الحاسمة ليس فقط للتنشئة الاجتماعية، أو التعليم الذي يتم في المدارس بل ولكل لحظة من لحظات الحياة الإنسانية.

وإنطلاقا من هذا المنظور الذي يعتبر الرموز الصوتية وكأنها مقاييس اجتماعية متفق عليها، يمكن إعتبار اللغة بمثابة [«النظام التعبيري الشامل الذي استخدم كوسيلة للإدراك ضمن مجموعة بشرية معينة» وأنها «تشكل نظاما من الرموز يتحد فيها المفهوم والصورة الصوتية لتكوين كل» ولهذا تكون اللغة ملكا مشاعا بين أفراد المجتمع، أو هي ملكة خاصة مشتركة بين كل أفراد المجموعة اللغوية](18).

ونظرا لكونها «الأداة المشتركة الناقلة للفكر» فإن اللغة تخلق عوائد تكتسي الصبغة الاجتماعية، والمؤكد أيضا «أنها حدث إجتماعي يحدث وينمو ويحرف ويتحسن بالنظر للمجتمع الذي ينتسب إليه.

ذلك لأن الكلام مؤسس على شرعية الحياة الاجتماعية التي تعكس الفكر الجماعي. مع إعتبار التلونات التي يأتي بها عن وعي أم عن غير وعي، الجموع والأفراد»(19).

وما يبين لنا أكثر البعد الاجتماعي للغة، هو أن واقع المجتمع هو الذي يقرر ما ينبغي تخصيصه من مصير اللغة، وهل يتاح لها التطور أو الارتداد؟ «فإذا كانت اللغة ظاهرة اجتماعية، فلا تسعها طبيعتها هذه إلا أن تعوض ضعف الإنسان الجسدي فتمنحه أداة تعبيرية تخول له التفاهم مع أقرانه وبهذا المعنى تكون اللغة عبارة عن «جملة من الأصوات المعبرة عن فكرة لا معنى لها في حد ذاتها، لكنها تتضمن معنى في إدراك مجموع السامعين»(20).

وإضافة إلى ذلك يقرر محمد المنجي الصيادي، «أن البعد الاجتماعي يقحم الأشياء والأعمال في سياق دقيق بحيث يتقرر مصيرها الجماعي بفضل المفهوم الملتصق بها(21).

وبهذا المعنى، تكون إحدى الوظائف الأساسية للغة هي: «نقل المؤسسات والعادات والأفكار والرموز: أي أنها تتسلم الخلفية الاجتماعية وتقوم بدورها في المحافظة على التراث الاجتماعي والثقافي المشترك»(22).

وباعتبارها ملكا إجتماعيا، فهي بذلك تشكل الأساس الذي به يمكن دفع الأفراد إلى التطور والنمو الاجتماعي بكل مظاهره. وبهذا تكون اللغة بمثابة العامل الحاسم الذي يعمل على زيادة التلاحم والانسجام والتوازن والاندماج الاجتماعي بين مختلف الفئات والأفراد الذين يتألف منهم مجتمع ما أو مجموعة ما.

وباعتبارها ملكا فرديا كذلك، فإن الفرد يقوم بالتصرف فيها واستخدامها كأداة في تفاعله مع من يشاركهم أو يشترك معهم في الحياة الاجتماعية التي لا يتحقق توازنها إلا بفضل تكيف الفاعلين الاجتماعيين مع نظمها وأنساقها المختلفة وإندماجهم فيها. وبهذا يتجاوز مفهوم اللغة مجرد «الابلاغ والتدوين والاسترجاع، إلى مستوى يكون لها فيه مفعولا قويا على إدراك الأفراد والجماعات لمعنى ونوعية الحياة المشتركة وتوازنها وتطورها»(23).

وفي الخلاصة، فإن ما يمكن إستنتاجه من التعاريف السابقة هي أن اللغة قد وصفت بنعوت متنوعة ومختلفة. ففي الوقت الذي يعتبرها البعض مجرد وسيلة أو أداة لنقل الأفكار، والتبليغ أو التعبير عنها، نلاحظ أن هناك من يمنحها وصفا غامضا عندما إعتبرها حالة من استقلالية الثقافة أو مادة طبعتها الحركة.

أما الفئة الثالثة، فتعتبر اللغة كنظام أو مجموع كلي من الرموز المتفق عليها وفقا لمقاييس ومعايير تسمح باستعمالها إستعمالا صحيحا وتطويرها في الاتجاه الذي يحدده المجتمع. أما الفئة الرابعة، فإننا نجد فيها من

يصف اللغة، بالخاصية الإنسانية، ومن يعتبرها الصورة الشاملة للسلوك الانساني، ومن يعتبرها ميزة أو ملكة خاصة بالإنسان ... إلخ، إلا أنه ومهما إختلفت هذه الأوصاف والنعوت لمصطلح اللغة، فإننا نلاحظ، من خلال التعاريف السابقة كذلك، أن هناك إتفاق شبه كلي بينها حول الوظيفة أو الرسالة الأساسية للغة، والتي يمكننا إيجازها كما يلي:

إن الوظيفة الأساسية للغة هي أنها وسيلة (الإتصال) أو (التوصيل) أو (النقل) أو (التعبير) عن طريق (الرموز والإشارات والأصوات الكلامية المكتوبة)، وأن ما (توصله) اللغة أو (تنقله) أو (تعبر عنه) هو (الأفكار) والمعاني والإنفعالات، والرغبات ... إلخ، أو (الفكر) بوجه عام(24).

وباعتبار أن اللغة هي العامل الحاسم في التربية والتعليم، والحياة بصفة عامة أو هي العامل الحاسم الذي يعمل على زيادة التلاحم والانسجام والتوازن والاندماج الاجتماعي، كما أشارت إلى ذلك بعض التعاريف السابقة، فإن تحقيق هذه الغاية المثلى من خلال أدائها لوظيفتها الأساسية والمتمثلة في نقل وتوصيل الأفكار والمعارف ... إلخ، يتطلب توفر معرفة دقيقة ومفصلة للأطراف التي تتم بينهما عملية النقل والتوصيل هذه، أي المرسل والمستقبل وكذا محتوى ومستوى ما ينقل ونوع الوسيلة أو الوسائل التي يستعان بها في نقل وتوصيل هذه المعارف والأفكار، من أجل بلوغ هدف الاندماج، ذلك هو جوهر التساؤل الكبير الذي ستحاول هذه الدراسة الإجابة عنه.

تحديد مفهوم الإندماج: أو «التمثل» Assimilation

قبل أن نستعرض بعض التعاريف الواردة حول مفهوم الإندماج، يتعين علينا محاولة رفع الإلتباس القائم بين مصدر الكلمة وهو «دمج» ومشتقات هذا المصدر مثل: إدماج، واستدماج، واندماج ... إلخ وكذا رفع الغموض الناتج عن التداخل الكبير بين مفهوم الإندماج، والتماثل والإمتثال والتلائم والتوافق، والتكيف الذي غالبا ما تغيب معه خصائص وسمات الموقف أو الوضع المتميز المعبر عنه بهذا المفهوم أو ذاك.

فكلمة «دمج» التي تقابلها في اللغة اللاتينية كلمة "Fusion"، وفي اللغات الأوروبية الحديثة مثل الفرنسية والانجليزية كلمة "Fusion"، إنما تعني من الناحية الفيزيائية إنتقال الأجسام من حالتها الصلبة إلى حالة السيولة بفعل الحرارة أما من الناحية الاجتماعية فتعني إتحاد مجتمعين أو مجموعتين إجتماعيين مستقلتين تماما عن بعضهما البعض، من خلال تجميع فضائلهما، ومهاراتهما المتميزة والمتنوعة، وتشكيل شخصية جديدة مشتركة تختلف كلية عن الشخصية المستقلة لكل منهما.

وباعتبار أن فعل الدمج هو عملية لا تتم بمجرد اللقاء بين طرفين يتمتع كل منهما بإستقلاليته عن الآخر، فإن الوقت الذي تستغرقه هذه العملية بالنسبة للمجتمعات أو الجماعات الاجتماعية يتوقف طوله أو قصره من ناحية على درجة وكثافة التفاعل بينها ومن ناحية أخرى على مدى التشابه والتساوي بينها. وهذا يعني أن الدمج «نسبي دائما» ولا يتم إلا من خلال ما يسمى

بالعلاقات الدمجية Relation fusionnelle التي تعمل على نشر وترسيخ عوامل التشابه والتساوي ومقاومة عناصر الإستقلالية والغيرية والانفصالية. وقد وصف الدكتور مصطفى حجازي هذه العلاقات الدمجية بأنها «نفي للإستقلالية والغيرية ... إلخ وهي من أساليب الدفاع الشائعة ضد قلق الإنفصال، هذا القلق الذي لا يهدأ إلا إذا انتفت كل مؤشرات الافتراق والاختلاف مهما قل شأنها، ولا يتم ذلك إلا من خلال الدمج: أي دمج الآخر في الذات أو الاندماج في ذات الآخر»(25).

أما كلمة «إستدماج» التي تقابلها باللغة الانجليزية كلمة "Internalization" وتقابلها باللغة الفرنسية كلمة "Internalisation" فهي تعني «موافقة الفرد - طواعية وليس إكراها - على إتجاه معين أو قيمة معينة يعتنقها شخص آخر أو جماعة أخرى وإعتبارها جزءا من ذاته»(26).

وبهذا المعنى فإن الإستدماج هو عملية مزدوجة، تلازم الشخص خلال مراحل بناء وتعديل وتحسين شخصيته فهو من ناحية يعمل باستمرار على رفض السمات والخصائص والمستويات السلبية لجماعته المرجعية: ويقوم في نفس الوقت من ناحية أخرى بانتقاء السمات والخصائص والمستويات الايجابية الموجودة لدى الآخرين، ممن يفوقونه أهمية. سواءا كانوا أفرادا أو جماعات - وإستدماجها في ذاته. ويعبر / ميكائيل مان MICHAEL MANN في كتابه: "Millan Student Encyclopedia of Sociology" عن عملية الإستدماج هذه بقوله: ينمو الأنا الأعلى - للطفل - من خلال مماثلته لأبويه،

أي بلوغه إعتناق مواقفهم وسلوكاتهم ومشاعرهم وهذا ما يؤدي إلى إستدماج "Internalization" هذه المواقف والمعايير واستيعابها "The taking in" . إن الأنا الأعلى "Supergo" يتكون من عنصرين وهما:

الضمير: Conscience، والذات الميثالية ego - ideal - أما الأول فيمثل إستدماج كل ما هو رديء وسيء، وأما الثاني فيمثل إستدماج كل ما هو جيّد»(27).

وزيادة في رفع الإلتباس بين هذه المفاهيم نشير أن مصطلح الإستدماج الذي يعبر عن العملية المستمرة لتكوين الذات وتعديلها ليس مرادفا إطلاقا لمصطلح التقمص "Introjection" أو الاجتياف الذي لا يعبر سوى عن «عملية نفسية لا واعية إجمالا يتمثل الشخص بواسطتها موضوعات وخصائص وصفات خارجية، كي يجعلها جزءا من ذاته»(28).

والحقيقة أن هذا التحديد لمفهوم التقمص يعتبر مبتورا وناقصا، ذلك أن الشخص لا يتمثل هذه الموضوعات والخصائص والصفات كما هي في الواقع، بل فهو يتوهم أنه تمثلها، ويستمر في توهمه هذا إلى أن يصطدم بالواقع.

أما كلمة ««إدماج» التي تقابلها في اللغتين الانجليزية والفرنسية كلمة "Amalgamation" فهي تعني باختصار «إمتزاج جماعة عرقية أو عنصرية أو سلالية مع جماعة أخرى عن طريق الزواج المتبادل بينهما»(29) أو هي «إندماج Assimilation تعسفي من أجل أهداف سياسية خاصة»(30).

أما بخصوص مفهوم «الإندماج» أو «التمثل» الذي تقابله في اللغتين الانجليزية والفرنسية مفهوم "Assimilation" فيعرفه كل من «بارك» و«برجس» "ROBERT EZRA PARK - ERNEST BURGESS" في كتابهما مقدمة لعلم السوسيولوجيا "Introduction to the science of sociology" بأنه: «عملية تغلغل والتحام يكتسب الأفراد والجماعات من خلالها اتجاهات وعواطف أفراد وجماعات آخرين، بحيث تستوعبهم الثقافة العامة نتيجة المشاركة في الخبرة والتاريخ»(31).

ويظيف المؤلفان: بأن مصطلح الإندماج أو التمثل، «يتضمن تغيرا وتعديلا في الشخصية أو هو عملية تداخل وتغلغل يكتسب من خلالها الأفراد والجماعات، إتجاهات وعواطف وسير أفراد وجماعات آخرين، وبفضل مشاركتهم لهؤلاء الأفراد وهذه الجماعات في خبرتهم وتجاربهم وتاريخهم سيتألفون ويتحدون معهم ضمن حياة ثقافية مشتركة»(32).

أما الدكتور محمد عاطف غيث، فيقدم لنا، في كتابه قاموس علم الاجتماع، صورة مفصلة ودقيقة عن هذا المفهوم واستخداماته المختلفة إذ يقول: إن الإندماج يعني (في علم الإجتماع ملاءمة الفكر والسلوك للوسط الاجتماعي، وفي الفسيولوجيا - يعني - استخدام المواد الغذائية لبناء المواد العضوية. وفي علم النفس - يعني - تفسير أي واقعة جديدة أو خبرة عن طريق وصلها بالمعرفة القائمة ويحسن التمييز بين «التمثيل» وبين «الامتصاص» البيولوجي أو «إمتزاج» السلالات البشرية، لأن «التمثيل»

يتضمن معنى تشتت الأقلية أيكولوجيا ومشاركتها في نفس الوقت في الأنساق الاجتماعية للأغلبية، كما يفترض درجة من التثقف تحول دون أن تصبح لثقافة الأقلية كيانا قائما بذاته.

ويستخدم المصطلح فضلا عن ذلك ليشير إلى العملية التي تحكم إستغراق جماعات الأقلية أو المهاجرين في ثقافة جماعة أخرى عن طريق الإتصال. وما يترتب على هذا الإستغراق الثقافي من نتائج. ولذلك يرتبط «التمثيل» بعملية هجر بعض السمات الثقافية، واكتساب سمات جديدة من خلال الإتصال والمشاركة.

أما التغير الذي يحدث نتيجة ذلك فإنه يتم بصورة تدريجية. وغالبا ما يشار إلى «التمثيل» بنسبته إلى مواقف معينة، ولكن قد يشار إليه أحيانا على أنه يعني إندماج الفرد تماما في عضوية المجتمع ككل. ومن الجدير بالذكر أن عملية «التمثيل» لا يتم من جانب واحد: لأن المهاجرين مثلا، لا يتبنون سمات ثقافية جديدة فحسب، بل إنهم يسهمون أيضا بسمات تضاف إلى الثقافة القائمة(33).

وزيادة في توضيح مفهوم الإندماج أكثر، ورفع بعض الالتباس والتداخل القائم بينه وبين المفاهيم الأخرى، التي غالبا ما تستعمل وتستخدم كمرادف له مثل، التلاؤم "Accomodation" والأمثال أو المسايرة Conformity، والتوافق adjustment، والتكيف Adaptation ... إلخ تشير بإختصار، إلى بعض التعاريف الواردة بشأن هذه المفاهيم.

وفي هذا السياق يعرف «التلاؤم» عادة بأنه «عملية إجتماعية وظيفتها تقليل أو تجنب الصراع، أو هو عملية تكيف إجتماعي تؤدي إلى وقف الصراع بين الجماعات عن طريق التدعيم المؤقت أو الدائم للتفاعل السلمي - أو هو توافق السلوك الفردي أو الجماعي - مع مواقف الصراع من خلال تجنب كافة مظاهر العداء عن طريق منح تعويضات إقتصادية واجتماعية ونفسية - للفرد أو للجماعة -»(34).

إلا أن هناك من حاول تعريف التلاؤم إنطلاقا من الوظيفة أو الدور الذي يقوم به من أجل تخفيف الصراع وتقليل العداء بين الأفراد والجماعات، فجابريال تارد J. TARD يرى أن التلاؤم «هو حل للصراع بين طريقتين متعارضتين للفعل يؤدي إلى ظهور نمط جديد من السلوك، في حين يعتبره كل من بارك PARK وبيرجس في كتابهما «مقدمة لعلم السوسيولوجيا» «بأنه قاعدة التنظيم الاجتماعي»(35) وعلى هذا الأساس يفرقان بينه وبين «المنافسة» التي هي أساس النظام الاقتصادي، و«الصراع» الذي هو قاعدة النظام السياسي، و«التمثيل» "Assimilation" الذي هو قاعدة النظام الأخلاقي.

أما مفهوم «الأمتثال أو المسايرة» "Confirmity" فيعرف عادة بأنه عبارة عن «سلوك مطابق لتوقعات الجماعة، يعكس مسايرة القواعد أو المعايير الاجتماعية، ويعبر عنه باستجابات تكون مشابهة لسلوك الآخرين أو باستجابات تحدد طريقها وفقا لعادات الجماعة ومعاييرها. وقد يعرف

الإمتثال بأنه العمل على تدعيم مجموعة مستويات سلوكية من جانب الجماعة تعبر عن تقليد طوعي لنماذج شائعة للفعل في مقابل العمل العدواني السلبي، كما يشير هذا المصطلح إلى الإمتثال للمعايير والتوقعات الشائعة في الجماعة التي يعتبر الفرد عضو فيها. أما الإمتثال لمعايير الجماعة الخارجية التي تسقط فهو ما يشار إليه عادة بعدم الإمتثال بالنسبة لمعايير الجماعة الداخلية»(36) وهذا يعني أن سلوك الفرد، ومواقفه، واتجاهاته، وردود أفعاله لا تكون، لا تكون سوية إلا إذا كانت ممتثلة ومسايرة لتلك التي تتخذ منها الجماعة معايير وأنماط سوية لها.

أما بالنسبة لمفهوم «توافق» "Adjustement" فهو يعني بالمعنى العام (تلك العملية التي يلجأ إليها الكائن العضوي أو الشخصية ليتمكن من الدخول في علاقة توازن أو إنسجام مع البيئة، مع ضرورة توافر الشروط لتحقيق هذه العلاقة)(37) أما بالمعنى الأخص فهو يعني (تلك العلاقة المنسجمة نسبيا بين الأفراد والجماعات)(38) أو هو بمعنى أدق (تلك القاعدة المتكونة من المعايير المرجعية التي تسمح بقياس قدرة الفرد على إقامة علاقات منسجمة ومستوية مع الظروف والمواقف والأشخاص الذين يكونون البيئة المحيطة به)(39) إلا أن ما يلاحظ بصفة عامة، ونظرا للطبيعة الديناميكية والمعقدة للتفاعل الإنساني، وبصفة أخص، إختلاف مضمون وثبات القاعدة المعيارية المرجعية لطرفي العلاقة، فإن ما يظهر على أنه توافق من وجهة نظر معينة قد يكون عدم توافق من منظور آخر.

أما بخصوص مفهوم «التكيف» "Adaptation" فإنه لا يختلف كثيرا، سواء من حيث المعنى أو من حيث الاستخدام، عن مفهوم التوافق. وبما أن هذا المفهوم قد ظهر أصلا في البيولوجيا، فإن إستعارته وانتشاره في غيرها من طرف المعرفة العلمية، لم يغير أو يبتعد كثيرا عن معناه الأصلي الذي ينحصر في تعديل وصقل نشاط الكائن العضوي بصفة مستمرة لكي يتماشى مع ما يطرأ على البيئة التي يوجد فيها هذا الكائن، من تغير دائم، وذلك من أجل بقاء النوع. وبناءا على ذلك، يعرف التكيف عادة بأنه (عملية أو نتاج تغيرات عضوية أو تغيرات في التنظيم الاجتماعي، والجماعة، أو الثقافة، تسهم في تحقيق البقاء، أو هو استمرار الوظيفة أو إنجاز الهدف الذي يسعى إليه الكائن العضوي أو الشخصية أو الجماعة، أو الثقافة)(40).

اللغة المعيارية:

بعد أن تطرقنا إلى مفهوم اللغة بصفة عامة، والمفاهيم الأخرى مثل الإندماج، والتلاؤم والإمتثال، والتوافق والتكيف وغيرها، والتي تشكل في مجملها إمتدادا اجتماعيا لممارسة اللغة، علينا الآن أن نتبين ما هو المقصود كمفهوم اللغة المعيارية.

فالمقصود من اللغة المعيارية - بداهة - هو أنها «ذلك الخزان المتجدد من الصيغ والعبارات، والمفردات، التي تخضع «سواء أثناء كتابتها أو النطق

يختلف كثيرا،
توافق. وبما أن
شاره في غيرها
ه الأصلي الذي
مستمرة لكي
من تغير دائم،
ة بأنه (عملية أو
والجماعة، أو
إنجاز الهدف
الجماعة، أو

الأخرى مثل
ني تشكل في
ا هو المقصود

، المتجدد من
نها أو النطق

بها» إلى ضوابط وأحكام نحوية، وصرفية، وبلاغية»(41)، أما ما عدا ذلك من الرموز والإشارات والإيماءات التي لا تخضع إلى هذه الضوابط والأحكام، فيبقى مجرد «أدوات إيصالية ظرفية أو آنية ترتبط بالموقف ولا تعبأ بماضيه أو مستقبله.

ففي القرن الماضي، 19، عندما كان المنهج المعياري هو السائد، يقول محمود أحمد السيد، في كتابه تعليم اللغة بين الواقع والطموح «تبوأت اللغة المكتوبة الأهمية الكبرى إن في اللغات الأجنبية وأن في لغتنا العربية ... ما عدا في روسيا أين ظلت اللغة الصوتية هي لغة المجتمع الوحيدة القادرة على أن تكون وسيلة مقبولة تماما للتواصل بين الناس، وأن هي لغة المجتمع الوحيدة القادرة على أن تكون وسيلة مقبولة تماما للتواصل بين الناس، وأن لغة الإشارات والأيدي ليست لغة تستطيع في شكل أو في غيره أن تنوب مناب اللغة الصوتية، ولكنها وسيلة رديفة ذات مكانات محدودة جدا يتوكأ عليها الإنسان لإبراز هذا المقام أو ذاك من كلامه»(42).

لكن وبعد أن شق المنهج التجريبي طريقه إلى الدراسات اللغوية بحيث أصبحت اللغة تدرس كظاهرة إجتماعية خاصعة للتطور والتغير وإلى وصفها وتحليلها كما هي في الواقع شكلا ومضمونا عاد الإهتمام من جديد في النصف الأول من القرن الحالي إلى اللغة المنطوقة فأصبحت هي التي تتبوأ المكانة الأولى وينظر إليها على أنها هي اللغة المعيارية خاصة في البلدان الأنكلوساكسونية.

إن من يحاول الوقوف، على تتابع النظرة إلى اللغة سيكتشف أن هنال إختلافا كبيرا وشبه تنازع دائم بين من يعتبر اللغة المكتوبة بالمعيارية تار وغير المعيارية تارة أخرى، وبين من يعتبر اللغة المنطوقة والشفوية معيارية أحيانا وغير معيارية أحيانا أخرى.

ومن دون شك فإن وراء هذا الإختلاف والتنازع، الكثير من الأسباب التي لا يمكننا ذكر بعضها إلا من باب الإفتراض وليس الجزم، ومنها على سبيل المثال: الإمتداد التاريخي، نوعية وكمية الرصيد المعرفي والعلمي التي ساهمت به كل لغة (مكتوبة وشفوية) في الحضارة الإنسانية عموما، الحفاظ على روح التجديد والإبداع والنقل والتأثير، التمتع بأسباب المناعة من الإندثار وأسباب الإستمرار في الإنتشار ... إلخ.

وبصرف النظر عن هذه الإفتراضات الغير المبررة علميا، فإن الإتجاه أو النظرة السائدة حاليا، تميل إلى تجاوز هذا الإشكال «المعياري واللامعياري» بتبني النظرة التكاملية بين ما هو مكتوب وما هو منطوق وإلى التركيز على طرائق تدريس اللغة، أكثر من الإهتمام بالمعاني التجريدية لهذا المفهوم.

وكجزء من هذه النظرة، يقول ميشال ستابس، عن اللغة الإنكليزية «يستعمل مصطلح الإنكليزية المعيارية» في عدة طرق متناقضة إلى حد ما. فقد يقصد به أحيانا، العامية الإجتماعية للطبقة الإنكليزية المتعلمة ذات الدخل الإقتصادي المرتفع، والمقيمة في جنوب شرق إنكلترا (لندن وضواحيها) وهي معيارية إستنادا فقط إلى مؤشرات تاريخية وجغرافية واجتماعية.

«فالانكليزية المعيارية تنحدر من عامية المتعلمين اللندنيين، التي بدأت منذ القرون الوسطى تكتسب بعض الحضوة والقداسة والنفوذ الاجتماعي، فتحولت بالتالي من عامية محلية إلى عامية طبقية واجتماعية. إلا أن هذه المعيارية غالبا ما تنقلب إلى شيء يصعب جدا إثباته طالما أنه لم يتم يوما ما وصفها بدقة. إن هذا التعريف، لا يعدو أن يكون على أية حال، أكثر من تعريف دائري: فهو يعني أن الإنكليزية المعيارية هي الإنكليزية التي يتحدث بها الأشخاص المتعلمون وأن ما يتحدثون به هو الإنكليزية المعيارية. وهناك فكرة أخرى عن الإنكليزية المعيارية والتي ترى بأنها تلك اللغة المدونة جزئيا في القواميس والمعاجم وفي كتب النحو والقواعد ومواجيز الاستعمال الجيد. إلا أن هذه الإنكليزية ما هي في الغالب إلا تدوين للإنكليزية المكتوبة، ونادرا ما تكون لها علاقة بالإنكليزية المتحدث بها أو المنطوقة. ونتيجة لذلك فإن هناك غموضا بين ما تصنعه النماذج الوصفية من قواعد وأحكام، وأطر وضوابط حول كيفية كتابة الإنكليزية أو النطق بها، وبينما هو ممارس حقيقة من طرف هذه المجموعة الاجتماعية أو تلك أثناء تحدثها بالإنكليزية وإنطلاقا من هذا الغموض حول الإنكليزية المعيارية فإنه ليس من المدهش أن المعيارية المرسلة من طرف المدارس ما هي في الغالب إلا خليطا من الرؤى والأحكام المجحفة المحلية حول ما هي النبرة Accent الصوتية الجيدة أحيانا، أو الاستعمال التعليمي لبعض الأفكار والرؤى العنفية، أو الأفكار المكتوبة أو الأدبية، أي اللغة التي يمكن أن تكون غير مناسبة للكلام أو الحديث(43).

بحوث - 5 -

ولتجاوز هذه المتاهة اللغوية اللامحدودة، وما ينجم عنها من أعراض تؤثر سلبا على اللغة ذاتها، وعلى المدرسة عموما وعلى التحصيل العلمي للأجيال بصفة خاصة، يرى الأستاذ محمد السرغيني في حالتي الجزائر والمغرب «... أن الحل القريب المنفذ في واقع الفصحى هو العمل على بثها بكافة الإمكانيات الموجودة وترسيخها لا يكون إلا في التعليم أولا وفي شؤون الحياة ثانيا بحيث يكون إشعاعها مفيدا لصهر اللهجات في اللغة العربية الحديثة، كما صهرت لهجة قريش اللغات القبلية الأخرى والعدول عن إستبدال الفصحى لقديمة بإحدى العاميات العربية الحديثة أمر مفروغ منه منذ أن ظهرت وتبلورت لغة عربية حديثة واعتبرت بمنزلة اللغة الثالثة (أو اللغة الوسطى) بين الفصحى العتيقة والعامية خاصة وأنها اقتبست تراكيبها من اللغة الأصلية وتغذت بالأفكار والألفاظ الشائعة في العصر الحديث فأتاح لها ذلك الظرف الملائم على النمو والاتجاه بأن تكون اللغة القومية(44).

العلاقة بين اللغة والفشل - والنجاح المدرسي:

ما هو سبب، أو ما هي أسباب نجاح أو فشل التلميذ في دراسته؟ هذا هو السؤال الجوهري الذي ما زال يشد إليه إهتمام الباحثين والدارسين في كثير من حقول المعرفة العلمية - النظرية منها والميدانية - مثل علماء النفس، والاجتماع، والتربويون والبيداغوجيون وغيرهم منذ مطلع الستينيات من هذا القرن، خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا.

وعموما يمكننا حصر هذه البحوث والدراسات ضمن الإتجاهات والأبعاد التالية:

- البعد الفيزيولوجي - النفسي.
- البعد النفسي - الإجتماعي.
- البعد الإجتماعي - الاقتصادي.
- البعد اللغوي.

ففي الفترة إلى ما قبل 1920 - وإلى غاية الأربعينيات 1940 - والتي لم يكن المجتمع البريطاني والأمريكي، قد تلخص فيها بعد وبصفة نهائية، من سيطرة ونفوذ، وهيمنة أفكار ونظريات داروين، وجون ديوي وغيرهم. فإن الإجابات على السؤال المطروح أعلاه غالبا ما كانت تلجأ أو تحتمي بالذرائع والعوامل الفيزيولوجية: مثل قصر أو طول القامة أو الأطراف، وزن المخ بصفة عامة والمخيخ بصفة خاصة وحجمهما، ضيق واتساع الجبهة ... إلخ وفي أحسن الحالات كانت تلجأ إلى تفسيرات نفسية مثل الإدراك، التخيل، الذكاء إلخ.

أما في الفترة الممتدة منذ ما قبل سنة 1940 وحتى 1950، والتي خيرت من سيطرة النماذج النظرية النفسية والاجتماعية، فقد كان المحيط العائلي والسكني بمختلف عناصره وقيمه ومضامينه، هو مصدر الإجابة عن هذا التساؤل الهام: فالطفل الذي يحضى برعاية كبيرة من طرف أبويه، والعناصر البشرية الأخرى المحيطة به، ويلقي منهم كل التشجيع المعنوي،

من إرشاد وتوجيه وحث، وجزاء أو مكافأة، وتلبى كافة مطالبه ورغباته فسيكون أقدر على إنجاز وبلوغ نجاحات تربوية هامة، أما الطفل الذي يكون محروما من هذه العناصر فسوف يواجه عقبات وحواجز كبيرة قد تحد من إنجازاته، وقد تحرمه من تحقيق أدنى غاياته وأهدافه من التحصيل، وبالتالي تحصر مطامحه وآفاقه الاجتماعية والاقتصادية في مجالات ضيقة للغاية ومستويات متدنية كثيرا. ونفس الشيء يمكن قوله عن ذلك الطفل الذي ينشأ في بيئة عائلية تتمتع بكل أسباب الرفاهية والحظوة المادية والاجتماعية والنفسية في مقابل ذلك الطفل الذي ينشأ في بيئة عائلية محرومة من كل ذلك فالأول (وانطلاقا من هذا الرصيد الميراثي - العائلي) قد يحقق من الانجازات التربوية والاجتماعية وغيرها ما قد يفوق مطامحه وقدراته بكثير في حين يعجز الثاني عن تحقيق أدنى مطامحه.

أما خلال الفترة الممتدة بين بداية الأربعينيات ونهاية الستينيات، والتي شكل فيها النموذج النظري الماركسي مادة موضوع النقاش والبحث الأكاديمي والعلمي. فقد أصبح الإنجاز والتحصيل العلمي والتربوي للطفل مرتبطا وإلى درجة كبيرة بمفهوم الطبقة الاجتماعية فيكفي الطفل إنتماؤه أو انتسابه إلى طبقة اجتماعية معينة، حتى يكون في وضع يسمح له (أو لا يسمح له) بتحقيق وانجاز مراميه وغاياته من التحصيل العلمي والمدرسي وما توفره له بنية المجتمع وطبيعة هذه البنية من فرص النجاح أو الفشل.

فالطفل المنتمي للطبقة المهيمنة إجتماعيا - واقتصاديا سيكون أقدر على التحصيل المدرسي من غيره وبالتالي أقرب إلى النجاح الدراسي ومن بلوغ

غاياته ومقاصده الاجتماعية والمادية، أكثر من الطفل المنتمي للطبقة الاجتماعية المهيمن عليها (وهي تمثل غالبا الطبقة المحرومة)(45).

إنه من الخطأ الجسيم أن يفهم القارئ أن هذه الأبعاد هي منفصلة تماما عن بعضها البعض، وأن لا تكامل وتداخل وتشابك بينها على الإطلاق. كما أنه من الخطأ الكبير أيضا الإعتقاد أن هذا النموذج النظري أو ذلك، أو هذا البعد أو ذلك قد سيطر مطلقة في هذه الفترة التاريخية أو تلك وأن النماذج النظرية والأبعاد الأخرى لم يكن لها أي أثر. فهذه الأبعاد ما زالت قائمة، كما أن الدراسات والبحوث التي تتخذ من النماذج النظرية المشار إليها أعلاه مرجعية لها ما تزال مستمرة، إلا أن البعد والاتجاه اللغوي قد أصبح منذ مطلع السبعينيات وإلى غاية الآن هو المسيطر. فإلى أي مدى تستطيع الدراسات والبحوث المؤسسة على البعد اللغوي أن تقنعنا علميا بأن نجاح أو فشل الطفل في دراسته إنما يرجع إلى اللغة، وليس إلى جملة من العوامل المتداخلة؟

وفي هذا الإطار، هل ينطبق مثل هذا الإشكال على المدرسة الجزائرية أم أنه من الممكن تجاوزه واعتباره كمقولة أو حكم مسبق، وذلك بصياغة وبناء نموذج تحليلي (نظري - وعملي) جديد، قادرا على أن يجعل المدرسة تستمر في إنتاج الذكاء الاحتياطي الضروري للمجتمع الجزائري. والذي يراعي الامتداد التاريخي لهذا المجتمع، ويقدر تجاربه المتراكمة، ويتعامل إيجابيا مع الرهانات العلمية والتكنولوجية العالمية المعاصرة.

(15) - Delacroix:Psychologie du language (Paris I (Aleau 1933)).

(16) - A. Martinet: Eléments de linguistique générale

عن كتاب، محمد المنجي الصيادي، ص 386 .

(17) - Vendryés: Le language: Introduction linguistique à l'histoire

عن كتاب محمد المنجي الصيادي، ص 386 .

(18) - Walter Von Wartburg: Problèmes et méthodes de la linguistique (Paris: PUF 1946)

عن كتاب محمد المنجي الصيادي، ص 390 .

(19) - BRUNOT, La pensée et la langue 3ed (Paris; Marseet 1936)

عن محمد المنجي الصيادي، ص 391 .

(20) - محمد المنجي الصيادي، التعريف وتنسيقه في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1984، ص 391 .

(21) - محمد السعران، اللغة والمجتمع، رأي ومنهج، ط3، 1963، دار المعارف.

(22) - نفس المرجع، ص 391 .

(23) - نفس المرجع السابق، ص 392 .

(24) - د. محمد السعران، اللغة والمجتمع، رأي ومنهج، 1963، دار المعارف، مصر، ص 12 .

(25) - د. مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي: سيكولوجية الإنسان المقهور، معهد الإنماء العربي، فرع لبنان، 1980، ص 269 .

(26) - محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر 1989، ص 254 .

(27) - Michael MANN: Machillan Student Encyclopedia of Socioloogie.

The Macmillan Press L.T.D. 1985. England, p. 312.

(28) - د. مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي: سيكولوجية الإنسان المقهور، معهد الإنماء العربي، فرع لبنان، 1980، ص 244 .

(29) - محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر 1989، ص 22 .

(30) - Petit Larousse illustré 1991, Librairie Larousse 1990, France, p. 57.

(31) - Park Robert Ezra and BURGESS "introduction to the Science of Sociology cited in: Michael Mann / Machillan Student Encyclopedia of Sociology, Macmillan Press LTD 1985, London, p. 276.

(32) - Ibid.

(33) - محمد عطاف غيث، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية الاسكندرية، 1989، ص 29-28 .

(34) - نفس المرجع، ص 14 .

(35) - Park Robert Ezra aand Ernest BURGESS: Ibid, p. 276.

(36) - محمد عاطف غيث، نفس المرجع، ص 83-84 .

(37) - (38) - (39) - محمد عاطف غيث، نفس المرجع السابق، ص 18 .

(40) - محمد عاطف غيث، نفس المرجع السابق، ص 17 .

(41) - محمود أحمد السيد، تعليم اللغة بين الواقع والطموح، ط1 - 1988، دار طلاس، للدراسات والترجمة والنشر، ص 16 وما يليها.

(42) - محمد السرغيني، «الازدواجيات وتعدد اللهجات واللغات»، اللسان العربي، السنة 6 كانون الثاني/يناير 1969، ص 106-112 . من كتاب التعريب وتنسيقه في الوطن العربي - لمحمد المنجي الصيادي.

(43) - (44) - Michael STUBBS: Language scools and classrooms, Richard Clay (The

LTD) Burgay Suffolk 1967 G.B. 15 et 25 à 26. chancer press

Michael STUBBS: Schools and Classrooms. The chancer press LTD 1976. - (45)
Burgan Suffolk G.B.